كلمة المترجم

هذه دراسات نشرها مؤلفها منجمة ، في دوريات ثقافية ، أهمها مجلة الأندلس، الذائعة الصيت ، ولم يجمعها كتاب قبل ذلك ، فرأيت أن ألم شعثها وأن تصدر بالعربية في كتاب .

تعالج هذه الدراسات – فيما تعالج – موضوعا عسيرا ، هو الأدب المقارن ، خاصة ما يتصل منه بتأثير الأدب العربي في الأدب الإسباني ، عبر شعاب يكتنفها كثير من الغموض ، فالحقل بكر ، وطارقوه في حاجة إلى دأب كثير ، وصبر أكثر .

ومسألة التأثير والتأثر هي لب الأدب المقارن لدى المدرسة الفرنسية ، وقد فهمت كثيرا على غير وجهها ؛ لأنها اقترنت أحيانا بالنقل والسرقة وعدم الأصالة على أقل تقدير ، ونحن ننسى أن نقل فكرة إلى أدب آخر يقتضي – عادة – تحويرا للفكرة وإسباغ الناقل عليها شية خاصة ، ربما تخفي معها أعراق الفكرة الأصلية ، ثم ما العيب في تأثر أدب بآخر ، وثقافات الأمم كلها تتأثر كل منها بالأخرى !

إن التأثير العربي في هذه الدراسات واضح لامرية فيه ، وقد دلل الأستاذ فرناندو دي لاجرانخا على ذلك في حصافة ولوذعية ، وأشار إشارة ذكية إلى دور الموريسكيين في نقل هذه الحكايات والمرددات الشعبية ، التي هي – في رأينا – الغذاء الثقافي اليومي للعرب والإسبان آنذاك ، لكن معظم هذه الأدلة لا تزال فروضا في حاجة إلى

الوقوف على أدلة تاريخية موثقة ، وإن كان عدم الوقوف عليها لا يعني أنها داحضة ؛ لأن النقل والتأثير واضحان بنفسهما ، وما على الأدلة إلا أن تثبت أمرا ثابتا.

لقد لعبت المصنفات الشعبية العربية دورا ملموسا في مصنفات الأدب الشعبي الإسباني ، وينبغي أن تفهم كلمة «الشعبية» هنا على وجهها ، فلا تعني المواويل ، والأغاني الشعبية العامية كما يريد أن يفهمها البعض منا ، بل تعني مصنفات فصيحة يتناقلها «الشعب» ترضي نزعته الفنية والخلقية والشخصية ، التي تروق لها النادرة ، والقصة بمفهومها الساذج ، والمثل المأثور ، وبيت الشعر الرائق ، والحكمة البليغة ، وكتب هذا النوع في العربية كثيرة منها مثلا : فاكهة الخلفاء لابن عربشاه ، وسراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي ، والتبر المسبوك في نصائح الملوك للغزالي ، والمستطرف للإبشيهي ، وحدائق الأزاهر لابن عاصم ، وغيرها كثير ، وهي في حاجة إلى نشرات جديدة أو إلى تحقيق علمي – قمنا ببعضه – ، كما أنها كثيرة أيضًا في اللغة الإسبانية مثل: الأيكة الإسبانية لسانتاكروث ، والأيكة الإسبانية لخوان دي تيمونيدا ، والقونت لوقانور لدون خوان مانويل – ترجمناه وشفعناه بدراسة مقارنة – ومناظرة الحمار لعبد الله الترجمان – نترجمه الآن – إلى غير ذلك .

أدرك جيل سابق لنا قيمة هذه الكتب ، فقرأها بعناية وفهم مدى التواصل الفكري في ثقافة هذه الأمة ، ثم خلف من بعدهم خلف لم يقرأ هذه الآثار ، ولن يقرأها إلا إذا أعيد الخلق من جديد ، وما ذلك على الله عز وجل بعزيز .

ومن فضائل المستشرقين أن فيهم دأبا ، كان لدينا مثله ، وبعضهم أدركته آفتنا الحاضرة ، غير أن الأستاذ جرانخا ظل بنجوة من تلك الآفة ، فهو قارىء يديم النظر في أدب العرب وأدب لغته ، يعينه على ذلك بصيرة نقدية واعية ، ومعرفة بلغات متعددة ، و«ظروف» ثقافية في إسبانيا تدفع إلى البحث والنظر ، كان لدينا مثلها !!

وهو امتداد لمدرسة محترمة في الاستشراق الإسباني ، تولى جل اهتمامها بالأندلس فكرا وتاريخا ولغة وأدبا ، ومن أعلامها : خوليان ريبيرا ، وأنخل جونثالث بالنثيا ، وميجيل أسين بالاثيوس ، وإميليو غرثيه غومث ، وصديقنا فرناندو دي لاجرانخا الشنتمري – نسبة إلى سانتا ماريا ، لقبه الثاني – ولهم دراسات نقدية مقارنة جادة ورائدة ، نذكر منها – مثلا – بحوث ميجيل أسين في تأثير الفلسفة والتصوف الإسلامي في الفلسفة والتصوف المسيحي في إسبانيا ، ومقارنة غرثيه غومث بين الأمثال العربية في حدائق الأزاهر وبين الأمثال الإسبانية لدى الماركيز دي سانتيانا ، وثمة مدرسة أخرى في برشلونة تهتم ببيان الأثر العلمي العربي كالفلك والطب والصيدلة في العلوم الأوربية في العصور الوسطى ، ومن أعلامها خوان بيرنيت ، وخوليو سامسو وأخرون .

لكن الحالة العلمية في إسبانيا الآن تتشابه إلى حد ما مع نظيرتها في مصر ، إلا أنها هنالك أفضل مما هي عليه هنا .

ترجمت هاته الفصول ، ورتبتها تاريخيا ، وتخففت تماما من الهوامش التي شفعها بها المؤلف ، مرتئيا أنها قليلة الجدوى بالنسبة للقارئ العربي ، وإن كانت لا تفوته فائدة ذكر المصادر في المتن ، فكثيرا ما يذكر المؤلف المصدر الذي يستقي منه ، واسم مؤلفه ، وسنة وفاته ، ولم أتدخل معلقا ، مع أن لدى حكايات عربية وشعرا عربيا له علقة بالحكاية الإسبانية ، ولم يقع عليها المؤلف ، مدخرا ذلك لكتاب أقوم بتحريره في المستقبل إن شاء الله ، كما أنني قومت بعض أبيات الشعر العربي الواردة في المتن ، وكانت مختلة الوزن ، إما راجعا إلى مصدرها العربي ، أو آيبا إلى فطرتي العروضية والشعرية .

للأستاذ فرناندو دي لاجرانخا الشنتمري بحوث أخرى منشورة في مجلة الأندلس خاصة ، لم أستطع الوقوف عليها ، وإن كان بعضها لا صلة له بموضوع

الأدب المقارن ، لكن له بحثا عن التأثيرات العربية في لاثاريو دي تورمس نـدعني ، ولعلي أعثر عليه فيما بعد ، فأضمه إلى أخوات له من قبل ومن بعد .

لست أدري هل الأستاذ فرناندو دي لاجرانخا يسره أن تجمع هذه الدراسات، وتنشر في العربية ، أم أنه – كعهدي به – في تعاليه ، وفي زهده ، وفي عزوفـه عـن أي ضوء ، وهو ممرور Amargado دائما من الزيف الساطي ، والركاكة الـشائعة ، شـأنه شأن الصادقين من الفنانين والعلماء ، كان يود أن تجمع أولا بالإسبانية في كتاب؟ أو تظل هاجعة في بطون الدوريات؟ لا أدري .

لكني أعتقد أن ودا غير مزغول بيننا يرقرق في نفسه بعض أنـداء العـزاء ، وأن الكلمة هي الكلمة في كل مكان ، وأن الأدب رحم بـين أهلـه ، «أدب أقمنـاه مقـام الوالد» ، ولعل إنصاف المؤلف للثقافة العربية غير حائد عن المنهج العلمي الـسليم هو «جواز المرور» إلى فكر القارئ العربي وقلبه ، وأنعم بهـذا مـن جـزاء حـين يعـز العزاء ويعز الرجاء .

أبو همّام